ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Dr. Heba Qasim Balchi

The General Director of Wasit Education

Email:
hbalchi@uowasit.edu.iq

Keywords:

Novel , under revision, Role - playing game, Duality

CC BY

A r t i c l e i n f o

Article history:

Received 12.Oct.2025

Accepted 17.Nov.2025

Published 25.Febr.2026

Hidden Patterns: Role-playing and Manifestations of Duality in the Fictional Character A Novel taht altanqih a Model

A B S T R A C T

Personality is not a given or a predetermined constant; rather, it is a construct that crystallizes over creative and interpretive time, its full significance only revealed when these temporal layers are complete. The process of uncovering personality depends on two essential elements: first, its connection to the multidimensional cultural text, and second, its reflection on the cultural framework of the recipient. From this perspective, the construction of personality is neither random nor governed by the personal whims of the creator or the recipient—it is a conscious, organized process subject to a set of constraints and obligations.

In our journey through the texts (under revision), we discovered that duality—in all its cultural, intellectual, and behavioral forms—is not merely an incidental split, but an existential marker of a society living on a civilizational fault line. The novel's characters—Abu Ghaib, Waleed, and Ahmed—were but living examples of a greater struggle: How can we be ourselves in a world that demands we be someone else?

Cultural duality emerged as a survival strategy in a world where identities intersect. Intellectual duality embodied the crisis of the intellectual torn between convictions and interests. Meanwhile, behavioral duality revealed the daily fragmentation of a person torn between what they believe and what they practice.

Yet, after all this, the novel offers a glimmer of hope: Acknowledging duality is the first step toward liberation from it. When Waleed becomes aware of the falsity of his roles, and when Ahmed steps back from his extremism, they become capable of questioning both themselves and society. Perhaps duality is a necessary stage in the journey of identity-seeking—but the danger lies in allowing it to become an existential habit that makes us forget our true faces.

Herein lies the novel's deepest message in an increasingly complex world, where identities clash and interests compete. We may sometimes be forced to wear masks... but the crucial thing is not to forget where we left our true faces. Contradiction may be the beginning of the path, but acknowledging it—and striving to transcend it—is what transforms crisis into an opportunity to rediscover the self anew.

© 2026 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol62.Iss2.4778

الأنساق الخفية: لعبة الأدوار وتجليّات الازدواجية في الشخصية الروائية
رواية تحت التنقيح أنموذجا

م.د هبة قاسم بلجي
المديرية العامة لتربية واسط

المستلخص

الشخصية ليست معطى جاهزًا أو ثابتًا مسبقًا، إنما تعد بناءً يتبلور عبر الزمن الإبداعي والتأويلي، إذ لا تنكشف دلالاتها الكاملة إلا عند اكتمال هذه الأزمنة. وتعتمد عملية الكشف عن الشخصية على عنصرين جوهريين: الأول، ارتباطها بالنص الثقافي متعدد الأبعاد، والثاني، انعكاسها على النسق الثقافي الخاص بالمتلقي. ومن هذا المنطلق، فإن بناء الشخصية لم يكن عملية عشوائية أو محكومة بالأهواء الشخصية للمبدع أو المتلقي فقط، فهي عملية واعية ومنظمة تخضع لمجموعة من القيود والإلزامات. وفي رحلتنا عبر نصوص (تحت التنقيح)، اكتشفنا أن الشخصية الازدواجية –بكل أشكالها الثقافية والفكرية والسلوكية– هي علامة وجودية لمجتمع يعيش على صدع حضاري. شخصيات الرواية من (أبو غائب، وليد وأحمد)، لم تكن سوى أمثلة حية لصراع أكبر: كيف نكون أنفسنا في عالم يفرض علينا أن نكون آخرين؟ فالازدواجية الثقافية ظهرت على إنها استراتيجية بقاء في عالم تتقاطع فيه الهويات. أما الازدواجية الفكرية فجسدت أزمة المثقف العالق بين قناعاته ومصالحه. بينما كشفت الازدواجية السلوكية عن التمزق اليومي للإنسان بين ما يؤمن به وما يمارسه. والرواية –بعد كل هذا – تطرح بصيص أمل، فالاعتراف بالازدواجية هو أول خطوات التحرر منها. فحين يعي وليد زيف أدواره، وحين يتراجع أحمد عن تعصبه، يصبحان قادرين على مساءلة الذات والمجتمع. ربما تكون الازدواجية مرحلة ضرورية في رحلة البحث عن الهوية، لكن الخطر يكمن في تحولها إلى عادة وجودية ننسى معها وجوهنا الحقيقية. وهنا تكمن رسالة الرواية الأعمق في عالم يزداد تعقيداً، حيث تتصارع الهويات وتتنازعها المصالح، قد نضطر أحياناً لارتداء الأقنعة...، لكن الأهم ألا ننسى أين تركنا وجوهنا. فالتناقض قد يكون بداية الطريق، لكن الاعتراف به –ومحاولة تجاوزه– هو ما يحوّل الأزمة إلى فرصة لإعادة اكتشاف الذات من جديد.

الكلمات المفتاحية: رواية، تحت التنقيح، لعبة الأدوار، الازدواجية.

المقدمة:

تمثل الرواية واحدة من أكثر الأشكال السردية قدرة على تجسيد التحولات التاريخية واستيعاب التناقضات الاجتماعية واستنطاق الأنساق الفكرية الكامنة. فهي لا تقتصر على نقل الواقع بصورة حرفية، إذ تتجاوزه إلى تشكيل عالم متخيل يحمل في طياته رؤية نقدية للوجود. وفي هذا السياق تبرز رواية (تحت التنقيح) للروائي حسين عبد الخضر نموذجا إبداعيا يستدعي القراءة والتأويل، لما تطرحه من إشكاليات تتعلق بهوية الشخصية العراقية وصراعاتها في ظل التحولات الاجتماعية والسياسية. ومن هنا ينبع المغزى من هذه الدراسة التي تسعى إلى إعادة قراءة المشهد الروائي عند الخضر عبر تفكيك الخطاب السردي، وكشف الطبقات الدلالية الكامنة وراء ظاهرة (لعبة الأدوار)، والتي تعد مفتاحًا لتأويل الأنساق الثقافية المضمرة في النص. فاختيارنا للرواية مبني على اساس أنها تشكل حقلًا خصبًا لاستكشاف هذه الإشكالية، حيث يجسد النصّ تفاعل الشخصيات مع صراعات الهوية والانزياحات الاجتماعية في بيئةٍ عراقيةٍ تتنازعها التناقضات. وعليه اعتمدنا منهجًا تحليليًّا تأويليا قائما على تفكيك الأنساق الثقافية، انطلاقًا من فرضيةٍ مفادها أن هذه الأنساق تشكّل مركزيةً في البنية الثقافية العربية عمومًا والعراقية على وجه الخصوص، لما لها من أثر حاسم في تشكيل وعي الشخصيات

ومواقعها. ولضبط إطار الدراسة، اقتصر التحليل على النسق اللغوي (الاسلوبي)، والأنساق النفسية والاجتماعية وتأثيرها في تحوّلات الأدوار، مع انتقاء النصوص الروائية انتقاءً واعيًا يحقق التمثيل الأمثل لفرضيات البحث.

الشخصية الازدواجية في الرواية: دراسة في المفهوم والمظاهر والأبعاد

تمثل ظاهرة الازدواجية في الشخصية الإنسانية إحدى الإشكاليات المركزية التي استأثرت باهتمام الباحثين في الحقول السوسيولوجية والسيكولوجية والأدبية على حد سواء. وبرزت في سياق الدراسات السردية هذه الظاهرة كآلية فنية تعكس تعقيدات الوجود الإنساني وتناقضاته في عالم تتقاطع فيه المرجعيات وتتصارع القيم (الوردي ٢٠٠٩، ٣١١).

تشير القراءات السوسيولوجية للازدواجية إلى أنها لم تكن حالة انفصامية مرضية كما قد يظن (مهدي ١٩٧٣، ٢٥٢)، هي بالأحرى استجابة طبيعية لتعقيدات البنى الاجتماعية الحديثة. ففي ظل المجتمعات التي تعاني من انقسامات قيمية حادة، يجد الفرد نفسه مضطراً لتبني أدوار متعددة ومتناقضة أحياناً وسيلة للتكيف مع هذه البيئة الاجتماعية المتنافرة. وهذا ما يفسره بيتر لودفيج بيرغر في نظريته عن اللامعيارية الاجتماعية حيث يصبح الفرد كائناً متعدد الوجوه وفقاً لحقول التفاعل الاجتماعي المختلفة التي ينخرط فيها (ط. اسماعيل، الحوار المتمدن ٢٠٢٤). أما على المستوى الأدبي–السردي– تتحول الازدواجية إلى أداة جمالية تمنح الشخصية الروائية عمقاً وجودياً وواقعية نفسية. ففي الرواية توظف الازدواجية لخلق شخصيات متعددة الأبعاد ولإبراز الصراعات الداخلية والخارجية، فالشخصية المزدوجة هي مرآة عاكسة لأزمات مجتمعها فهي من أهم التقنيات التي تعكس تعقيد الشخصيات وتضارب المواقف داخل النص الروائي، إذ توظف لإظهار التناقضات والثنائيات الفكرية والاجتماعية، حيث تتحول الشخصيات إلى حقول ديناميكية تعكس الصراع بين القيم الموروثة وضغوط الحداثة، وبين الخطاب الرسمي والممارسة اليومية، وكذلك بين الذات والآخر (مهدي ١٩٧٣، ٢٥٣–٢٥٤) . ومن الممكن أن تتجلى الازدواجية في البناء الروائي، أو في الشخصيات، أو حتى في اللغة السردية (مهدي ١٩٧٣، ٢٥٢). ولما للازدواجية من دور محوري حاولنا رصد آليات تشكلها في النص الروائي بعدّها نتاج لتفاعل معقد بين الفرد وبيئته الاجتماعية (الوردي ٢٠٠٩، ٣١١). كما إن دراستنا تحاول الكشف عن الكيفية التي يوظف فيها الروائي هذه الظاهرة في بناء شخصياته، وكيفية تحويل التناقضات المجتمعية إلى مادة إبداعية غنية بالدلالات. وتهدف إلى الإجابة عن مجموعة من التساؤلات الجوهرية: كيف تتحول الازدواجية من ظاهرة اجتماعية إلى أداة جمالية في النص الروائي؟ ما هي الآليات السردية التي يعتمدها الروائي لتمثيل هذه الازدواجية؟ وكيف تعكس الشخصيات المزدوجة أزمات الواقع الذي تنتمي إليه؟ وتسعى الدراسة إلى إثبات أن الأدب لا يكتفي بتسجيل الظواهر الاجتماعية، وإنما يقدم تشخيصاً عميقاً لها، ويكشف عن أبعادها الوجودية التي قد تخفى عن الدراسات الاجتماعية التقليدية. مما يجعل من النص الروائي وثيقة أنثروبولوجية بالغة الأهمية في فهم تعقيدات الشخصية العربية المعاصرة. وتأتي هذه الدراسة لتحلل تجليات الازدواجية في رواية (تحت التنقيح) للروائي حسين عبد الخضر، بوصفها نموذجاً إبداعياً يجسد أزمة الهوية في الواقع العربي المعاصر. ووقع اختيارنا على ثلاث أنماط للازدواجية التي ظهرت في الرواية وهي: الازدواجية الثقافية، والازدواجية الفكرية، والازدواجية السلوكية.

النص الروائي وتمثيله للأنساق الثقافية:

الروائي جزءاً لا يتجزأ من النسيج الثقافي لمجتمعه (عباس ٢٠١١، ٨) ، حيث ينطلق في عمله الإبداعي من رؤية تتشكل في ضوء تجاربه الذاتية ووعيه التاريخي. فالتجربة الروائية عند الخضر لا تنفصل عن السياق الاجتماعي الذي نشأ فيه، كما أنها تحمل بصمات المرحلة التاريخية التي عايشها (حمود ٢٠١٠، ١٥). ومن خلال هذا التمازج بين الذاتي والموضوعي، يتمكن الروائي من صياغة عالم سردي قادر على استيعاب التناقضات وتجسيد التحولات التي يعيشها

المجتمع (ابركرمبي ١٩٨٦، ٣٥). إذ بات النص الروائي ذا شأن عظيم في الدراسات المجتمعية، لأنه يشكل نظاماً دلالياً معقداً يحيل إلى مستويات متعددة من التأويل. فالشخصيات الروائية، وإن بدت وكأنها نماذج مستقلة، فإنها في الحقيقة تمثل تجسيداً للصراعات الكامنة في بنية المجتمع (لوكاش ١٩٧٨، ١٩٦، القاضي، البنية السردية في الرواية ٢٠٠٨، ٧٤). وفي رواية (تحت التنقيح)، تبرز ظاهرة (لعبة الأدوار) كإحدى الآليات السردية التي يعتمدها الكاتب للتعبير عن أزمة الهوية التي تعيشها الشخصية العراقية. هذه الظاهرة لا تقتصر على الجانب الفني، إذ تمتد لتشكل مدخلاً لفهم الأنساق الثقافية المضمرة التي تحكم سلوك الأفراد في المجتمع (بركان ٢٠٠٤، ٢) . فتقوم الدراسة على افتراض رئيس مفاده أن الانزياحات الدوريّة التي تمارسها الشخصيات في الرواية ما هي إلاّ تعبير عن أزمة وجودية تعيشها الذات العراقية في ظل التحولات الاجتماعية والسياسية (م. الهادي ٢٠٠٥، ١٣). فالشخصية الروائية تتنقل بين الأدوار والمواقع، تارةً ضحية وتارةً جلادا، في محاولة منها للتكيف مع الواقع المتغير (ابراهيم ٢٠١١، ١٤٩، اسماعيل و خليفة ٢٠٠٥، ٩٧) . هذا الانزياح الدوريّ يحيلنا إلى ما أسماه إرفينغ غوفمان بـ(إدارة الانطباع) (لونيس ٢٠١٨، ٧٣٤)، حيث تلجأ الشخصيات إلى ارتداء (أقنعة) متعددة كآلية للتعامل مع متطلبات الواقع. وفي تحليلنا للرواية سنعتمد على منهجية متكاملة تقوم على:

١. تحليل الخطاب السردي للكشف عن آليات تشكيل الشخصيات.
٢. المنهج الثقافي في تحليل الأنساق المضمرة.
٣. المقاربة السوسيولوجية لفهم العلاقة بين الشخصيات وبيئتها الاجتماعية.

وكما أشار عبد الملك مرتاض إلى أن "**أن قدرة الشخصية على تقمص الأدوار المختلفة التي يحملها إياها الروائي يجعلها في وضع ممتاز حقاً، بحيث بواسطتها يمكن تعرية أي نقص وإظهارها أي عيب يعيشه افراد المجتمع**" (مرتاض ١٩٨٨، ٩٠). فهذا الطرح يبرز الأبعاد النقدية الكامنة في المتن الروائي، حيث تصبح الشخصيات وسيلة للكشف عن التناقضات والاختلالات في البنية الاجتماعية (النوري ٢٠١١، ٩١) وعليه يمكن القول إن رواية (تحت التنقيح) تشكل نموذجاً إبداعيًا قادراً على تجسيد التحولات الاجتماعية واستنطاق الأنساق الثقافية الكامنة. فمن خلال تحليل ظاهرة (لعبة الأدوار) والازدواجية في سلوك الشخصيات، نتمكن من فهم أعمق لأزمة الهوية التي تعيشها الذات العراقية في ظل التحولات الاجتماعية والسياسية (عيد ١٩٩٩، ١٤–١٥). وتظل الرواية بهذا المعنى، وثيقةً أدبيةً تسجل تحولات المجتمع وتكشف عن تناقضاته. وبما إن الازدواجية مظهر من مظاهر الأنساق المضمرة سوف تركز الدراسة على تحليل ظاهرة الازدواجية في شخصيات حسين عبد الخضر الروائية، مع التركيز على ثلاثة مستويات:

١. الازدواجية الثقافية: (صراع الهوية بين الموروث الثقافي والحداثة).
٢. الازدواجية الفكرية: (التناقض في المنظومة القيمية والمعرفية).
٣. الازدواجية السلوكية: (الفجوة بين المعلن والمضمر في الممارسات اليومية).

الازدواجية اللغوية والثقافية: (صراع الهوية)

في عالم تتقاطع فيه الثقافات وتتصادم الهويات تبرز الازدواجية الثقافية ظاهرةً معقدة تبدأ بذرتها الأولى مع النشأة اللغوية للإنسان، لتمتد جذورها عميقًا في تشكيل وعيه وسلوكه. فاللغة لم تكن محايدة، إذ كانت وعاء يحمل في طياته رؤى العالم وقيمه، ونافذة تطل منها الذات على الآخر (البصير ٢٠١٥، ٣٦). لكن ماذا يحدث عندما يعيش الفرد بين لغتين،

أو بين مستويات لغوية متباينة؟ كيف يؤثر هذا التعدد في بنائه الفكري، وفي سلوكه الاجتماعي، وفي نظرته إلى ذاته وهويته؟ (خورشيد ١٩٨١، ٢٣٤).

تشير الدراسات إلى أن الازدواجية اللغوية –من فصحى وعامية، ولغة أجنبية وأخرى محلية– هي انعكاس لصراع أعمق بين مرجعيات ثقافية متضاربة (سيرل ٢٠١٢، ٩٦–٩٩). فالفرد الذي يتحدث بلهجته العامية في الحياة اليومية، ويستعمل الفصحى في التعليم أو الإعلام، ويتلقى مضامين ثقافية بلغة أجنبية، يعيش حالة من التفكك الوجداني، حيث تتصارع في داخله أنماط تفكير وسلوك لا تتناغم بالضرورة، فالأمر يتجاوز ذلك إلى ظهور لغة هجينة، مشتتة بين التراث والمعاصرة، بين الأصيل والدخيل، مما يزيد من تعقيد المشهد الثقافي (صالح ٢٠١٢، ٢٣٥) ولأن اللغة هي الوعاء الذي يتشكل فيه الفكر، فإن أي انقسام فيها ينعكس حتمًا على العقل والسلوك_فاللغة نسق من الرموز التي تحمل في داخلها رؤية المجتمع إلى العالم (أحمد ٢٠١٤، ٤٨). وعندما يصبح هذا النسق متعددًا، متشظيًا، فإنه يولّد ازدواجية فكرية تظهر في التناقض بين القيم الموروثة والمكتسبة، بين المحلي والعالمي. ولا تقف الآثار عند هذا الحد، إذ تمتد إلى السلوك الاجتماعي، حيث يجد الفرد نفسه يعيش بأكثر من هوية، فيتنقل بين أدوار متنافرة، مما قد يؤدي إلى أزمة في الانتماء والوجود. في هذا السياق، تأتي هذه الدراسة لتكشف النقاب عن الازدواجية الثقافية بوصفها ظاهرة مركبة تتشابك فيها العوامل اللغوية والتعليمية والإعلامية، بهدف تحليل تأثيراتها على الهوية الفردية والجماعية. فمن خلال دراسة هذه الظاهرة يمكننا فهم التحديات التي تواجه المجتمعات في عصر العولمة، حيث لم تعد الحدود الثقافية واضحة، ولم تعد الهويات منغلقة على نفسها. والسؤال الذي يطرح نفسه بإلحاح: كيف يمكن للفرد أن يحافظ على تماسكه الثقافي في عالم يتسم بالتداخل والتناقض؟

ولان الازدواجية اللغوية والثقافية قدر لا مفر منه في عالم اليوم، فإن فهمها والتعامل معها بوعي قد يكون المفتاح لتحويلها من أزمة إلى فرصة للإثراء والتكامل. وهذا ما سنحاول استكشافه في هذه الدراسة، فلو بحثنا في رواية (تحت التنقيح) عن هذا النوع من الازدواجية، لوجدناه يطالعنا بشخصية (ابو غائب) بثقافته الشعبية الدينية والذي كان معروفاً بين الناس بمعالجة المرضى بشكل سري (معالج روحاني) فكان يتظاهر بمعرفة عوالم الكائنات الغريبة (الجن) وكان يفرض سلطته على الناس من خلال ادعائه بمعرفة الغيبيات، فيقول الراوي: "**يستخدم أبوغائب سطوته العجيبة ليقود الناس الذين حملوني إلى بيته بدل بيتنا، ويضعني في غرفته، حيث يعالج المرضى بسرية. قال: (لأنها لم تستوطنك بعد، نجحت في آخراجها بسرعة، لكن الثلاثة المستوطنين منذ وقت طويل اتعبوني) تقيأت. لا يمكن لإنسان تخيل مشهدا مقززا كالذي تخيلته ولا يتقيأ**" (الخضر ٢٠١٧، ١٣). وكانت ادعاءاته طلباً للمنفعة المادية والمتعة، مستغلاً ايمان الاغلبية في تلك المناطق بهذه الغيبيات واعتناقهم لها، وبهذا تظهر ازدواجية (أبو غائب) الثقافية عندما اظهر مسايرته لثقافة الوسط الذي كان يعيش فيه، وإخفاءه لثقافته، فضلا عن المنفعة التي كان يتحصل عليها مادية كانت أم معنوية. فـ"**بعض النساء ممن يرين في ابي غائب رجلا مباركا! كن يأتين لعمل الاحراز لأطفال يبكون عندما يحل الغروب أو للحماية من العين**" (الخضر ٢٠١٧، ١٧). فيشير النص إلى أن الازدواجية اللغوية والثقافية أصبحت سمة حتمية في العالم المعاصر، لكن التعامل الواعي معها قد يحولها من أزمة إلى فرصة للإثراء. ويتم اختبار هذه الفكرة عبر تحليل شخصية (أبو غائب) حيث تتجلى ازدواجيته في السلوك واللغة تبعًا للظروف الاجتماعية. إذ أمست الازدواجية الثقافية أداة للسيطرة، فنجد (أبو غائب) شخصية المعالج الروحاني الذي يستغل معتقدات المجتمع في الجن والسحر لفرض سلطته مثل ادعائه علاج المرضى بقوله:" **لأنها لم تستوطنك بعد...**" فيتخذ لغة بسيطة وعفوية تتناسب مع ثقافة البيئة الشعبية، مما يجعله مقنعًا كمعالج روحاني (كما في مشهد النساء اللاتي يطلبن الأحراز). وأحيانا تكون الازدواجية وسيلة للمنفعة إذ يستغل إيمان الناس بالغيبيات لتحقيق مكاسب مادية ومعنوية، ويستثمر جهل بعض النساء لاستغلالهن جنسيًا "**لا غرابة**

في ان ابا غائب لم يتزوج. توقعت ان يكون متزوجاً من جنية في البداية، لكني لاحظت إن بعض النساء يتسللن اليه ومن الفترة التي يستغرقها غيابه معهن عرفت ما يجري هناك. فما الذي يمكن ان يجري في عزلة قصيرة بين رجل اعزب وامرأة مستعدة للتنازل عن كل شيء مقابل تحقيق غرضها" (الخضر ٢٠١٧، ١٦). فهنا الازدواجية هي تكتيك واعٍ لتحقيق المصالح. ونلاحظ التحول اللاحق للشخصية (ابو غائب) من الشيخ إلى الأستاذ الذي حصل بتغير الظروف (المكان، الثقافة، توقعات المجتمع)، فتغير شخصية (أبو غائب) كان جذريًا: فمن ناحية المظهر: أصبح أصغر عمرًا، وتخلى عن ملامح المعالج الروحاني. ومن ناحية اللغة فنجده يتبنى لغة المثقفين بعد أن كان يستعمل لغة السحرة والعرافين أما الهوية يغير اسمه إلى الأستاذ مظهرًا نسقًا جديدًا من الازدواجية يناسب وضعه الجديد، فيقول الراوي: **"بدا لي أصغر عمرا مما كان عليه، حتى صوته أصبح أصغر عمرا! لكني تمسكت بصمتي لأصغي اليه وهو يسرد قصة أخرى لحياته التي عاشها في حينا.. قصة جديدة لم يطلع عليها غيره، ليس فيها مكان للسحر والطلاسم والنساء، ولي أيضا..."** (الخضر ٢٠١٧، ٣٢)، ويسترسل معترفا بالتغييرات التي طرأت على الشخصية:**"لقد أصبح أبوغائب رجلا مهما... إلى درجة لا يمكنني تخيلها حتى اسمه تغير وصار الاستاذ"** (الخضر ٢٠١٧، ٣٢). يمكننا القول إن اللغة مرآة للازدواجية الثقافية ففي الدور الأول–الشيخ– لغته شعبية، لغة الناس البسطاء، لغة السحرة والعرافين تتماز بالبساطة والعفوية واستمالة القلوب وموغلة في الخرافة، تعكس ثقافة الوسط (مثل كلامه عن الجن المستوطن). أما في الدور الثاني–الأستاذ– يصوغ خطابًا عقلانيًا أكاديميًا ليظهر نفسه شخصية مثقفة. هذا التحول غير تلقائي وإنما مقصود، إذ يدرك أبو غائب أن لكل مرحلة أدوارًا لغوية وثقافية يجب تبنيها لتحقيق أهدافه. يشير هذا النص إلى مكانة اللغة، فالتبدل اللغوي هو أداة لإخفاء التناقض وبناء هويات متعددة. وهنا تأكيد على ان اللغة جزء أساسي من الازدواجية الثقافية، فهي أداة لتشكيل الهوية وإعادة إنتاج السلطة. فبتغير الظروف تحولت شخصية (أبو غائب) من معالج روحاني إلى أستاذ مثقف مما يؤكد أن الازدواجية اللغوية والثقافية هي استجابة ديناميكية لتحولات المجتمع. وهنا يصبح السؤال: هل هذه المرونة انتهازية، أم أنها محاولة للبقاء في عالم متغير؟ وربما نجد الاجابة في شخصية (أبو غائب) التي تعد نموذج حي للازدواجية المرنة التي تعيد تشكيل نفسها وفقًا للسياق مما يدفعنا لإعادة النظر في مفهوم الهوية الثابتة أساسًا ففي الأدوار التي لعبتها شخصية (أبوغائب) أثبت أن الازدواجية قد تكون استجابة لمتطلبات البيئة (الإكراه الاجتماعي)، لكنها أيضًا استراتيجية انتهازية (اختيار فردي).

نخلص إلى أن شخصية (أبو غائب) في رواية (تحت التنقيح) جسدت نموذجاً حياً للازدواجية اللغوية والثقافي، فمن خلال تتبّع تحولات هذه الشخصية، نكتشف كيف يمكن للازدواجية أن تتحول من أزمة إلى فرصة للإثراء والتكيّف. ففي بدايته، يظهر (أبو غائب) شخصية تستغل المعتقدات الشعبية والدينية، متخذاً من دور المعالج الروحاني ستاراً لممارسة نفوذه على المجتمع، هذه الازدواجية لا يمكن عدّها تناقضا داخليا، إنما استراتيجية واعية لتحقيق منافع مادية ومعنوية، بدءاً من المكاسب المادية وصولاً إلى استغلال بعض النساء جنسياً، لكن هذه الشخصية لا تبقى حبيسة دور واحد. فمع تغير الظروف واختلاف البيئات الثقافية يشهد أبو غائب تحولاً جذرياً. من معالج روحاني إلى أستاذ مثقف، يتغير مظهره ولغته وحتى اسمه، في محاولة للتكيّف مع المتطلبات الجديدة للمجتمع، مما يكشف عن مرونة مدهشة في تشكيل الهوية. هذا التحول يطرح أسئلة جوهرية عن طبيعة الازدواجية: هل هي تعبير عن صراع الهوية، أم أداء تكتيكي لتحقيق المصالح؟ عرضت الرواية من خلال شخصية (أبو غائب) رؤيةً مركبة للازدواجية، بعدّها أداة تكيّف قد تصبح حيوية للاستمرار في واقع متحوّل، فالشخصية تثبت أن الهوية غير ثابتة، وقابلة لإعادة التشكيل وفقاً لسياقات مختلفة، مما يدفعنا لإعادة النظر في مفاهيمنا عن الثبات والانتماء.

ونجد تجسيد هذه الرؤية في شخصية (وليد) المضطربة ثقافياً في داخلها، حيث ينتقل من كونه شاباً غير راغب في الدراسة، تشغله الخزعبلات التي كان يسردها عليه أبو غائب، فيقول: "**لم اتجاوز الامتحان في هذه السنة، ولا في السنة التي تلتها. لقد أصبحت تلميذاً عند ابي غائب، لا يهمني الا ان افهم العالم على يديه وأصبح أكثر معرفة بالكائنات التي تحاصرنا وتحتلنا**" (الخضر ٢٠١٧، ١٣). ليقفز ويتحول إلى دور آخر بطلب من أبي غائب نفسه إلى شخصية ذات فكر وثقافة مختلفة فيقول: "**عليَ بعد اليوم ان ارتدي ملابس جديدة، بنطلون جينز، قميص يفضل ان يكون لونه زاهياً، قميص بلا اكمام مليء بالجيوب، ومن الضروري ايضاً أن أضع نظارة على عيني.**

– مظهر يدرك من يراه فورا إنك مثقف.. الم تر المثقفين؟ البس مثلهم.

– لكني لست مثقفاً.

– ستكون. المجتمع بحاجة إلى مثقفين، وستكون انت احدهم ثق بي..." (الخضر ٢٠١٧، ٣٤). ففي تحليلنا السابق لشخصية (أبو غائب) وازدواجيته اللغوية والثقافية، نجد صدىً واضحاً لهذا النموذج في شخصية وليد التي تقدمها الرواية كنموذج آخر للاضطراب والتحول الثقافي. فإذا كان (أبو غائب) يمثل الازدواجية المخطط لها بوعي، فإن وليد يجسد الازدواجية كرد فعل للظروف القسرية والرغبة في الانتماء. **إذ** تبدأ حكاية وليد شاب غير مبالٍ بالدراسة، منجذباً إلى عالم الخرافات والأساطير التي يرويها أبو غائب، حتى أنه يترك الدراسة ليتتلمذ على يديه. هنا نرى المرحلة الأولى من ازدواجيته: رفضه للثقافة الرسمية (المدرسة) مقابل انجذابه لثقافة بديلة (الخرافات الشعبية). لكن المفارقة تكمن في أن (أبو غائب) نفسه هو من يدفع به نحو تحول جذري، إذ يأمره بتغيير مظهره بالكامل ليلبس زي المثقفين، على الرغم من اعتراف وليد بأنه لم يكن مثقفاً. هذه اللحظة تكشف عن الازدواجية في أعمق مستوياتها حيث يصبح المظهر الثقافي قناعا يفرض على الشخصية من الخارج، بينما تبقى الهوية الحقيقية في حالة اضطراب. ما يلفت النظر في هذه التحولات هو كيف تصبح الازدواجية استجابة حتمية للضغوط الاجتماعية. فشخصيات حسين عبد الخضر –سواء أكانت أبو غائب أم وليد– تظهر كيف أن الفشل في تحقيق الذات، يدفع المرء إلى تبني ثقافات وهويات جديدة كملاذ وجوي. اللغة هنا، كما في حالة أبو غائب هي مؤشر على التحول الثقافي: من لغة الخرافات إلى لغة المثقفين.

تثير الرواية سؤالاً مقلقاً: هل هذه التحولات تعبير عن حرية الاختيار، أم أنها استجابة لقهر اجتماعي وثقافي؟ في حالة (وليد)، يبدو التحول مفروضاً عليه من قبل (أبو غائب)، مما يجعل ازدواجيته أكثر إيلاماً فهو لم يكن سيد تحولاته، لكنه دمية في يد قوى أكبر منه. هذه الرؤية القاتمة تذكرنا بأن الازدواجية الثقافية قد تكون في كثير من الأحيان مسألة بقاء أكثر منها اختياراً حراً. وهكذا من خلال هاتين الشخصيتين، تنجح الرواية في تقديم صورة معقدة للازدواجية الثقافية: فهي تارةً أداة للتمكين والتحرر (كما في حالة أبو غائب الذي يستعملها لتحقيق مصالحه)، وتارةً أخرى عبءً قسرياً (كما في حالة وليد الذي يجد نفسه مجبراً على تبني هوية لا يعرفها حق المعرفة). في كلا الحالتين، تظل الازدواجية ظاهرة ملتبسة قد تكون سبيلاً للنجاة في عالم متغير، ولكنها قد تكون أيضاً مصدراً للاغتراب والضياع.

نخلص إلى أن الازدواجية اللغوية والثقافية واضحة بين ما كان عليه (وليد) وما سيكون، من تظاهر بالثقافة، والمعرفة، لمسايرة واقع جديد فرض على الشخصية، فنجد الخضر أورد في روايته شخصيات حملت صفة الازدواجية، أما بفعل الظروف القسرية والقاسية التي مرت بها تلك الشخصيات، أو بسبب انبهارها وسعيها وراء ثقافات جديدة قد تحقق ذاتها من خلالها، بعد ان فشلت لغتها وثقافتها في تحقيق مصالحها واهدافها.

الازدواجية الفكرية: (تناقض الافكار/ الانتماءات)

في عصر تتقاطع فيه المرجعيات وتتصادم الخطابات انبثقت ظاهرة الازدواجية الفكرية في المجتمعات العربية إشكالية وجودية تمسّ صميم الهوية الفردية والجماعية، تعكس ذلك الشرخ العميق بين عالمين: عالم المثاليات الذي تقدّمه النصوص الدينية والفلسفية والتربوية، وعالم الواقع بكل تعقيداته وتناقضاته. فالفرد العربي المعاصر يعيش في حالة من التناقض الدائم بين ما يؤمن به نظرياً وما يمارسه فعلياً، بين ما يتلقاه في المؤسسات التعليمية وما يجده في الممارسات الاجتماعية، بين خطاب المثقفين وواقع العامة (سويد ١٩٩٢، ٣٦)

تمثّل الازدواجية الفكرية تحدياً معرفياً وسلوكياً، إذ يجد الفرد نفسه أمام خيارين أحلاهما مُرّ: إما الانسحاق تحت وطأة التناقض، أو البحث عن مصالحة بين الأضداد. فمن جهة، هناك منظومة القيم الموروثة التي تتخذ طابعاً مثالياً ومطلقاً، ومن جهة أخرى هناك متطلبات الواقع العملي التي تفرض منطقها النسبي والبراغماتي. هذا الصراع لا يقتصر على الجانب المعرفي فحسب، إذ يمتد ليشكل أزمة هوية تتجلى في السلوك الفردي والجماعي (خورشيد ١٩٨١، ٢٣٨).

تنماز هذه الظاهرة في تحولها من حالة فردية إلى سمة بنيوية تطبع الثقافة العربية المعاصرة. فالمجتمع الذي يعيش في خضم هذه الازدواجية يصبح عاجزاً عن إنتاج رؤية متكاملة للذات والعالم، مما يجعله عرضة للتبعية الفكرية والاستلاب الثقافي. كما أن استمرار هذه الحالة يؤدي إلى تفكك النسيج الاجتماعي، حيث تتعايش خطابات متضاربة دون أي إمكانية للحوار أو التكامل.

إن إلقاء الضوء على هذا النوع من الازدواجية ما هو الا محاولة لفهم أحد أهم التحديات التي تواجه الفكر العربي المعاصر، والذي لا يمكن تجاوزه من دون تشخيص دقيق لجذوره التاريخية والاجتماعية. ففهم الازدواجية الفكرية هو الخطوة الأولى نحو بناء رؤية نقدية قادرة على تجاوز التناقضات، وفتح آفاق جديدة للفكر والوجود في العالم العربي.

في رواية (تحت التنقيح) تتجسّد الازدواجية الفكرية مرآة تعكس أزمة الهوية في الواقع العراقي المعاصر. فشخصية وليد –ذلك الشاب البسيط الذي يتحول من تلميذ عند مشعوذ إلى مثقف مزيف – متعلم مدّع– لم تكن حالة فردية، هي تجسيد للشرخ الثقافي والانقسام الحضاري الذي يعانيه جيل من العراقيين في خضم التحوّلات المجتمعية والسلطوية المتلاحقة فتطالعنا الشخصية الرئيسة (وليد) الذي ظهر في بادئ الأمر فردا بسيطا غير متعلم– ذات غير مثقفة–، يعمل صبي عند (أبي غائب) المشعوذ، وبمرور الأحداث في الرواية نجده يبطن ويخفي كل هذه الأفكار ويظهر افكاراً أخرى بعيدة كل البعد عما كان عليه، وهنا تكمن الازدواجية في الفكر، وذلك بحسب ما تقتضيه ظروفه من مصلحة خاصة ومنفعة مادية، ويبدو ذلك جلياً في حديث (أبي غائب) مع (وليد): "– **لقد دعوتك من اجل هذا الموضوع بالخصوص. أنس كل ما تعلمته مني، وأنس إني علمتك هذه الخزعبلات يوما. كانت مجرد غطاء كما اخبرتك، وأنا آسف جدا لأني ورطتك معي..**" (الخضر ٢٠١٧، ٣٣). إذ يظهر لنا هذا النص كيف إن أبا غائب لم يكن يؤمن بما كان يفعله سابقا فيصفه بالخزعبلات، وبعد حين عندما تغيرت وجهة أهدافهم–ابو غائب ووليد– ومصالحهم، تغيرت افكارهم وكان عليهم التغير لأجل ذلك، اذ طلب منه أبوغائب ان يقتني بعض الكتب التي حددها له مسبقاً ويحفظ كلامها عن ظهر قلب، ليظهر للناس على هيئة شاب متعلم ومثقف، فيقول وليد: "**مر ليل طويل، قرأت خلال ساعات يقظتي فيه بعض المقاطع التي اعجبتني من الكتب، وفي راسي تتشكل صورة لإله آخر.. إله لا يمكن لأي انسان أن لا يحبه**" (الخضر ٢٠١٧، ٣٥). إذ إن أصعب أمر تواجهه الشخصية هو وقوعها بين نوعين من القيم ضمن نظامين متناقضين من تلك القيم والافكار، إذ تعاني الشخصية آنذاك من صراع نفسي عظيم، فهي لا تستطيع ان تتجه نحو جانب واحد من تلك القيم، عندها تقع الازدواجية الفكرية وتصبح شخصية مضطربة ومتغيرة في إيمانها ودفاعها عن فكرة معينة أو مبدأ بعينه، فهي متأرجحة بين المثال والواقع. فتكشف الرواية أن الازدواجية لم تعد خياراً حراً، فهي استراتيجية بقاء في مجتمع تتصارع فيه

الخطابات. فوليد، الذي كان يصدق خزعبلات أبي غائب، يصبح فجأةً مثقفاً بنظارات وملابس موضة، لا عن قناعة، فقط لأن المجتمع بحاجة إلى مثقفين كما يقول معلمه. هذه المفارقة تفضح آلية تشكل الهويات في ظل أنظمة سلطوية، حيث تصبح الأفكار أزياء نتبدلها حسب الحاجة. وقد لا تكون الازدواجية الفكرية بدافع المصالح والطمع فقط، فقد يكون الخوف والرهبة من جهة معينة سببا إلى ظهور هذه الازدواجية وقيام الأفراد بمسايرة افكار تلك الجهة تارة، واظهار افكارهم تارة، والتخفي منهم تارة أخرى، وهذا ما وجدناه في شخصية (أبو غائب) في حديثه مع (وليد) عندما صارحه بحقيقة ماضيه، والخداع الذي كان يمارسه على الناس وعلى وليد أيضا "**ها قد اصبحت تعرف الحقيقة الان، انا رجل كنت اعمل ضد نظام غاشم، وكان يجب ان احمي نفسي**" (الخضر ٢٠١٧، ٣٣). اذ ظهر أمامهم بشخصية المشعوذ الذي اتخذ من الدين غطاء لاستغلال الناس الذين صدقوه لبساطته تفكيرهم وقلة ثقافتهم. ولم يكن مثالا لازدواج الشخصية إنما كان الاداة التي تغير افكار وثقافة كل من يمر بقربها وتخلق لديهم هذه الازدواجية الفكرية، إذ يكشف النص كيف تتحول الازدواجية من حالة فردية إلى ظاهرة اجتماعية. أبو غائب نفسه يعترف بأن شعوذته كانت غطاء لعمل سياسي، مما يثير سؤالاً جوهرياً: أليست كل الهويات في النهاية أغطية؟ أليست كل الأفكار قابلة للتبدل عندما تتغير المصالح؟

وفي حديث (وليد) مع (ضياء) يقول له: "**عزيزي ضياء، كتبت، يوجد في حياتنا شيء مهم جدا أكثر مما تتصور، اسمه (أبو غائب). هناك من يراه مثلي انا، وأكثر الناس لا يرونه ابدأ وتنقضي حياتهم دون ان يسمعوا به، أبو غائب هذا كيان ممتد في كل اتجاه يهمه أن يعرف كل شيء عن الجميع وأن يتدخل ليرسم مسار حيلة الجميع دون ان يشعروا به..**" (الخضر ٢٠١٧، ٩٣). يظهر النص كيف تنتقل العدوى، فوليد الذي كان ضحية، يصبح بدوره ناقلاً للازدواجية، كما يتضح من حواره مع ضياء إنها حلقة مفرغة من التزييف والتلبس، حيث يصبح الجميع ممثلين في مسرحية كبيرة، لا يعرف أحد من حرّك خيوط عرائسها، وأيضا في حديث (شماس) مع (وليد) "**– لو لم يضعني أبوغائب في طريقك، لو لم تقع انت في طريقه، لكانت لك حياة مختلفة**" (الخضر ٢٠١٧، ٧٥)، إذن هناك من يتحكم بنا وبنوازعنا وميولنا وافكارنا ويرسم الطرق التي يدفع بنا للسير فيها، ويغيرها ان شاء ذلك ونتغير معه.

نخلص إلى أن الازدواجية الفكرية تتشكل في المجتمعات العربية نتاج حتمي لصراع مرجعيات متعددة، تتراوح بين التراث الديني والفلسفي من جهة، والحداثة من جهة أخرى. هذه الظاهرة لا تعكس انقسامًا في الرؤى، وإنما أزمة وجودية تضعف التماسك الداخلي للفرد والمجتمع، إذ يعيش الفرد في حالة من التناقض المعرفي بين ما يؤمن به نظريًا وما يمارسه عمليًا. وكما يصفها عالم الاجتماع عليّ الوردي، فإن المجتمع العربي يعاني من (ازدواجية القيم) (الوردي ٢٠٠٩، ٣١١)، حيث يعلّق على جداره شعارات المثالية، بينما يمارس في حياته اليومية قواعد البراغماتية والانتهازية. فالرواية قدمت الازدواجية على أنها ظاهرة أنثروبولوجية تعكس حالة مجتمع بأكمله يعيش على صدع حضاري. إنها تشريح دقيق لآلية تشكل الوعي في ظل أنظمة تستبدل القناعة بالتمثيل، والحقيقة بالادعاء. وهنا تكمن قوة العمل، فهو لا يكتفي بتشخيص المرض، إنما يفضح آلية اشتغاله في العمق الاجتماعي والنفسي.

الازدواجية السلوكية: (الفجوة بين القول/ الفعل)

في قلب العواصف التي تعصف بالهوية العربية المعاصرة، يبرز المشهد العراقي كحالة دراسية فريدة تعكس أعمق إشكاليات الازدواجية السلوكية بكل تعقيداتها. فما بين تراكمات الماضي العريق وصراعات الحاضر المضطرب (خورشيد ١٩٨١، ٢٤١)، ينشطر الإنسان العراقي بين هويات متعددة، تتنازعه قيم متنافرة، وتتصارع في داخله مرجعيات متضادة. هذه الازدواجية لم تكن ظاهرة سطحية عابرة، هي أزمة وجودية تمسّ صميم البنية النفسية والاجتماعية للفرد العراقي المعاصر.

فلقد تحول العراق إلى بوتقة تنصهر فيها كل مظاهر الازدواجية: الثقافية والفكرية والسلوكية، حيث تشكلت عبر عقود من الاحتكاك الحضاري مع الآخر، سواء أكان هذا الاحتكاك قسراً عبر الاحتلالات المتعاقبة، أم اختياراً عبر محاولات التحديث والانفتاح. فمنذ بدايات عصر النهضة وحتى اللحظة الراهنة، ظل العراقي يعيش على خط التماس بين الشرق والغرب، بين الأصالة والمعاصرة، بين الثوابت والمتغيرات (سويد ١٩٩٢، ٥٧) . وتكمن خطورة الازدواجية السلوكية في كونها تمثل المرحلة المتقدمة من سلسلة الازدواجيات، إذ تتحول من أفكار أو قناعات إلى ممارسات وسلوكيات يومية. فالفرد العراقي اليوم يعيش حالة من الانشطار بين ما يعلنه من قيم ومبادئ، وما يمارسه في حياته العملية. هذا التناقض لم يعد مقصوراً على النخب المثقفة، إذ أصبح سمة عامة تطبع مختلف شرائح المجتمع، مما يدل على عمق الأزمة وشموليتها (مهدي ١٩٧٣، ٢٥٤).

سلطت الدراسة الضوء على الازدواجية السلوكية بوصفها نتاجاً طبيعياً لتراكم الازدواجية الثقافية والفكرية التي عاشها المجتمع العراقي لعقود طويلة (ن. الهادي ٢٠١١، ٢١٨). ومحاولة جادة لفهم أحد أهم الإشكاليات التي تواجه البناء الاجتماعي العراقي اليوم. فدراسة الازدواجية السلوكية ضرورة ملحة لفهم مآزق الواقع العراقي واستشراف احتمالات مستقبله. كما أن هذه الدراسة تسعى إلى تقديم رؤية نقدية متوازنة، ترفض الأحكام المسبقة وتتجنب التبسيط المخل، في معالجة ظاهرة بالغة التعقيد والتشابك. إذ تتجلى مظاهر هذه الازدواجية في مختلف مناحي الحياة العراقية. ففي المجال السياسي نجد خطاباً ديمقراطياً يخفي تحته ممارسات قبلية وعشائرية. وفي المجال الديني نرى التزاماً ظاهرياً يخالف سلوكيات يومية مناقضة. أما في المجال الاجتماعي، فقد أصبحت الازدواجية أسلوب حياة، حيث يتنقل الفرد بين أدوار اجتماعية متضادة ببراعة تثير الدهشة (شمال ٢٠١٠، ١٧–١٨) .

تمثّل الازدواجية السلوكية في الرواية –وفي الواقع العراقي– مرحلة متقدمة من أزمة الهوية، حيث تتحول التناقضات الفكرية إلى ممارسات يومية تفاقم الشرخ بين المبادئ والممارسات. ففي رواية تحت التنقيح تنهض شخصية أحمد حيث خرج على ما كان متعارف عليه، إذ كان شابا متهورا، حياته عبارة عن مشاكل ومشاجرات، عرف عنه الطيش وقلة المعرفة، وبعدها تحول سلوكه إلى سلوك مغاير عندما تركته والدته "**ينضم إلى جماعة مسلحة جديدة اعلن عن تشكيلها بعد تفجير رهيب**" (الخضر ٢٠١٧، ٢٢). مخالفا بهذا أقواله وأفعاله الماضية، فأصبح متعصبا للدين وقائما وخطيبا ومنددا بالخارجين عليه والمتشبهين بالأفكار الغربية ومتوعدا إياهم بالقتل، حتى انه أصبح ناقما على أخيه (وليد) لشكه انه يتعامل مع الامريكان. هذا التحول من شاب عصريّ مشاكس إلى متعصب ديني ثم إلى نادم، تعكس هذه الديناميكية المعقدة –الازدواجية استجابة للصراعات المجتمعية– إن هذا التحوّل من حياة المشاجرات والطيش إلى الانضمام لجماعة مسلحة باسم الدين يظهر كيف تستغل الهويات الجاهزة (الدينية، السياسية) كأدوات لملء الفراغ القيمي. ونجد تناقضه اللاحق –قتل الشخص الخطأ– يكشف أن هذه الهويات لم تكن قناعات راسخة، لكنها أقنعة مؤقتة تتهاوى تحت وطأة الواقع فبعد فترة ليست قصيرة تغير سلوك الشخصية العدواني، فيقول الراوي: "**حماس احمد للقتال لم يخب، لكنه تراجع فيما بعد، ربما، وهذا مجرد افتراض ورد في ذهني الان، ندم على بعض التصرفات التي قام بها، كأن يكون قد قتل الشخص الخطأ مثلا...**" (الخضر ٢٠١٧، ٣٠–٣١). فأحمد لم يكن شخصاً متدينا فيما سبق، ولكنه وقع في شرك الازدواجية جراء تمثله بالمثل العليا والمبادئ السامية لفظا ومسايرته لإغراءات الواقع المعيش ومجتمع العوام فعلا وسلوكا. ويجسّد (وليد) نموذجًا آخر للازدواجية حيث يعترف بأن أفعاله كانت مفروضة عليه، كتمثيل دور المثقف أو تبني خطاب لا يعبّر عن داخله. ومحاولته العودة إلى حياة عادية تفشل، فيواجهنا باعتراف منه بازدواجية سلوكه، اذ لم يكن مقتنعا بما يتكلم به، ولا ما يفعله من سلوك فرض عليه فيقول: "**أعدت مراجعة أفكاري. داخلتني بعض الشكوك في صحة معرفتي بلغة الجسد، وما إذا كان للجسد لغة اصلا، لأنها ستكون بلا فائدة ما دمنا نتجاهل اللغة الصريحة، لغة الصوت التي**

تعبر بوضوح عن أفكارنا" (الخضر ٢٠١٧، ٤٧). وبعد ذلك نجده يحاول التخلص من كل هذه الازدواجية ويعود لحياته الطبيعية "**خططت لحياة عادية، رأيت انها أفضل من السعي وراء معرفة الالغاز الكامنة خلف الاحداث أو حياة الشهرة التي تبدو لي الآن أنها كانت زائفة، لكن حتى هذا المطلب الصغير لم يتحقق**" (الخضر ٢٠١٧، ٧٣). مما يؤكد أن الازدواجية لم تعد خيارًا فرديًا، هي نتيجة لبيئة اجتماعية تفرض التناقض كشرط للبقاء. فالازدواجية هي ظاهرة بنيوية ففي الرواية نجد أن هذه التناقضات أمست سِمَة مجتمعية: ففي السياسة هي خطاب ديمقراطي يخفي تحته عصبيات قبلية، وفي الدين هي التزام ظاهري يخفي انحرافات سلوكية، وكذلك في المجتمع هي تعدد الأدوار كالانتقال بين التديّن والعلمانية بلا هوية واضحة. ويكمن الخطر في تَبنِّي الازدواجية كقاعدة اساسية فعندما تتحول الازدواجية من حالة استثنائية إلى أسلوب حياة، يصبح المجتمع ساحة لصراع هوياتي دائم حيث توظف الأفكار أدوات للاستغلال، كما فعل أبوغائب في التلاعب بوليد. والسلوكيات تختزل في ممارسات متناقضة، كأحمد الذي يتبنى التطرف ثم يتراجع. وكذلك الفرد يفقد القدرة على التمييز بين حقيقته وأدواره (كما يعترف وليد).

نخلص إلى أن رواية (تحت التنقيح) لم تكتف بتشخيص الازدواجية السلوكية، حيث كشفت أنها آلية دفاع ضد واقع مفكك. فالشخصيات – مثل المجتمع العراقي– تتنقل بين الهويات لأنها تبحث عن شرعية مفقودة في نظام قيمي منهار. وهنا يصبح السؤال المركزي: كيف يمكن إعادة بناء الثقة بين الفكر والسلوك في مجتمع حوَّل التناقض إلى قاعدة؟ فالازدواجية لم تكن خيانة للذات، إنما محاولة يائسة لإيجاد الذات في عالم لا يعترف إلا بالأقنعة. ففي هذه الرواية يصبح التحول الدراماتيكي لشخصية أحمد من شابٍ متهور إلى متعصب ديني ثم إلى نادم، نموذجاً صارخاً لأزمة الهوية التي يعيشها الفرد العراقي. هذا التحول هو انعكاس لشرخ عميق في البنية الاجتماعية، حيث تتحول التناقضات إلى نمط حياة يومي. فما يبدأ كازدواجية فكرية، سرعان ما يتجذر في السلوكيات، ليصبح أداءً مأساوياً نعيشه جميعاً على مسرح الواقع. وتتجلى خطورة هذه الازدواجية في تحولها من حالة فردية إلى ظاهرة مجتمعية. فالفرد لم يعد مضطراً لإخفاء أفكاره الحقيقية، فصار يمارس سلوكيات تناقضها علناً. السياسي الذي يتحدث عن الديمقراطية بينما يمارس المحاصصة الطائفية، المتدين الذي يظهر الورع ويخفي الانحراف، المثقف الذي يتقمص أدواراً لا يعتقد بها جميعهم يعيشون تناقضاً أصبح سمة مميزة للمجتمع العراقي المعاصر. وفشل شخصية وليد بالعودة إلى الحياة الطبيعية العادية ما هو إلّا بيان بأن النظام الاجتماعي نفسه قد حوّل التناقض إلى شرط للبقاء. إنها مفارقة وجودية نحن نرتدي الأقنعة لنحمي أنفسنا، لكننا في النهاية نفقد القدرة على تمييز وجهنا الحقيقي تحت طبقات الأدوار المتعددة.

لم تكن رواية (تحت التنقيح) رواية عن شخصيات تعيش التناقض، هي مرآة لمجتمع بأكمله يحاول أن يجد معناه في وسط فوضى الهويات، إنها تشير إلى أن الخروج من هذه الأزمة يتطلب أكثر من وعي فردي ويحتاج إلى مراجعة جذرية للأنظمة الاجتماعية والسياسية التي جعلت من الازدواجية شرطاً للبقاء. وتطرح الرواية سؤالاً مقلقاً: هل يمكن أن تصبح الازدواجية أسلوب حياة دائم؟ أم أنها مرحلة مؤقتة في رحلة البحث عن هوية ضائعة؟ الأكثر إثارة للقلق هو كيف تتحول هذه الازدواجية من استراتيجية دفاعية إلى سجن نفسي، حيث يصبح الفرد سجين أدواره المتناقضة، عاجزاً عن التحرر منها حتى عندما يدرك زيفها.

وأتفق مع الروائي حسين عبد الخضر في أنّ كل شخص طوال حياته، يغير أدواره في الحياة باستمرار حتى اللحظات الأخيرة، في كل فترة، بعد أمر ما، يكتشف إنّ عليه أنّ يغير من وضعه.

الخاتمة:

تقع هذه الدراسة ضمن حقل السرديات الاجتماعية التي تتقصى تداخل الخطاب الروائي مع التشكيلات المجتمعية والتحولات النفسية، متخذةً من رواية (تحت التنقيح) لحسين عبد الخضر نموذجاً دالاً على تفاعل النسيج السردي مع المنظومات الثقافية الكامنة. وتتماز هذه الرواية –كغيرها من أعمال عبد الخضر– باعتمادها استراتيجية التناوب السردي– التبدل الأدائي– آلية سردية تجسّد إشكالية الهوية في الواقع العراقي الراهن.

ومن أهم النتائج التي توصلت اليها الدراسة:

١– ثنائية الثبات والتحوّل:

لقد أسفرت الدراسة عن كشف ثنائية الثبات والتحوّل في شخصيات الرواية، حيث تظهر هذه الشخصيات وكأنها تمارس نوعًا من التلبّس الأدائي، تتنقّل فيه بين أدوار اجتماعية متعارضة، كأن تتحوّل الشخصية من ضحية إلى جلاد، أو من مثقف إلى منافق. هذا التحول يخفي في طياته أنساقًا مكبوتةً تعكس تمثّلات الهوية، والتفكك النفسي، وكذلك الأزمات الشرعية الاجتماعية (الانتماء الطبقي، الديني، السياسي).

٢– المتن الروائي مرآةً للأنساق الثقافية:

إذ يعدّ النص الروائي من أكثر الأشكال السردية قدرةً على استيعاب المضامين التاريخية واستنطاق الأنساق الاجتماعية والرؤى الأيديولوجية، حيث يقدم للقارئ خطابًا جماليًا مركبًا يقوم على بنية سردية فنية تستند إلى عناصر جمالية متداخلة. فالقيمة الجوهرية للنص الروائي لا تكمن في نقل الواقع بحرفيته، إنما في قدرته الفائقة على توليد التأثير الجمالي وإثارة الوعي النقدي لدى المتلقي، حتى عندما ينأى بمحتواه عن التمثيل الواقعي المباشر.

٣– الأنساق الخفية وتأثيرها في التشكيل السردي

إذ كشفت الدراسة عن أهمية تحليل الأنساق النفسية والاجتماعية الكامنة وراء ظاهرة (لعبة الأدوار) في النص الروائي. هذه الأنساق تشكل نظامًا معقدًا من العوامل التي تحدد استجابات الفرد للمثيرات الاجتماعية. كما يلاحظ أن هذه الظاهرة تتجلى في تنقل الشخصيات بين المواقع والأدوار المختلفة، حيث تلجأ إلى ارتداء أقنعة متعددة كآلية للتكيف مع التحديات أو للتحصن من المخاطر المحيطة.

٤– (لعبة الأدوار) في الرواية لم تكن تقنية سردية، هي تمثيل لجروح الهوية العراقية، حيث تعبّر الانزياحات عن:

- أزمة الشرعية: صراع الشخصيات بين الانتماءات الموروثة والمفروضة.
- الفصام الثقافي: التناقض بين القيم التقليدية وحداثة مفترضة.
- الصدمة التاريخية: تأثير العنف السياسي في تشظّي الذوات.

في النهاية، فإن هذا الدراسة لا تدعي تقديم حلول جاهزة، بقدر ما تسعى إلى تشخيص دقيق للظاهرة، على أمل أن يشكل مدخلاً لحوار جاد حول سبل تجاوز هذه الازدواجية، والوصول إلى صيغة أكثر انسجاماً بين الفكر والسلوك، بين المثال والواقع، بين الذات والآخر.

المراجع

باديس لونيس. "ارفنغ غوفمان والظاهرة الاتصالية قراءة ابيستمولوجية في أهم افكاره التنظيرية." *مجلة دراسات وأبحاث* ، ٢٠١٨: ٧٢٢-٧٣٤.

جورج لوكاش. *الرواية التاريخية*. بغداد: وزارة الثقافة والفنون، سلسلة الكتب المترجمة، ١٩٧٨.

جون ر. سيرل. *اللغة والواقع الاجتماعي من الطبيعة الى الثقافة*. المركز القومي للترجمة، ٢٠١٢.

حسين عبد الخضر. *تحت التنقيح*. لبنان: دار المكتبة الاهلية، ٢٠١٧.

حسين عيد. *المثقف العربي المغترب*. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية، ١٩٩٩.

رشيد الحاج صالح. *الوجه السياسي للثقافة العربية المعاصرة (الوعي الديني- الثقافة الشعبية- العقليات- الهوية- النظم المعرفية- دور المثقف- التراث- العلم)*. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٢.

سليم بركان. *النسق الايديولوجي وبنية الخطاب الروائي- دراسة سوسيو بنائية لرواية ذاكرة الجسد لاحلام مستغانمي*. الجزائر: رسالة ماجستير، ٢٠٠٤.

طيب اسماعيل. *الحوار المتمدن*. ٢٦ ١١، ٢٠٢٤. www.ahewar.net.

عباس مهدي. *الشخصية بين النجاح والفشل*. بغداد: مطبعة الزهراء، ١٩٧٣.

عبد الله ابراهيم. *السرد والاعتراف والهوية*. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، ٢٠١١.

عبد المعطي سويد. *التناقض الوجداني في الشخصية العربية المعاصرة*. سوريا: دار الحوار للنشر والتوزيع، ١٩٩٢.

عبد الملك مرتاض. *في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد*. الكويت: المجلس الوطني للثقافة، ١٩٨٨.

عبد المنعم زكريا القاضي. *البنية السردية في الرواية*. مصر: الدراسات والبحوث الانسانية، ٢٠٠٨.

—. *البنية السردية في الرواية*. مصر: الدراسات والبحوث الانسانية، ٢٠٠٨.

عطية سلمان أحمد. *في علم اللغة النفسي نمو الدلالة*. مصر: الاكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ٢٠١٤.

علي الوردي. *دراسة في طبيعة المجتمع العراقي*. بيروت: دار ومكتبة دجلة والفرات، ٢٠٠٩.

فاروق خورشيد. *هموم كاتب العصر*. القاهرة: دار الشروق، ١٩٨١.

فضل الله اسماعيل، و عبد الرحمن خليفة. *الايديولوجيا وفلسفة الحضارة*. مكتبة بستان المعرفة، ٢٠٠٥.

قيس النوري. *الشخصية العربية ومقاربتها الثقافية*. بغداد: دار ومكتبة البصائر، ٢٠١١.

لاسل ابركرمبي. *قواعد النقد الأدبي*. بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٨٦.

ماجدة حمود. *صورة الآخر في التراث العربي*. الجزائر: الدار العربية للعلوم ناشرون، ٢٠١٠.

محمد عباس. *سقوط التابو- الرواية السياسة في السعودية*. بيروت: جداول للنشر والتوزيع، ٢٠١١.

محمد عبد الهادي. *علم النفس الاجتماعي*. بيروت: دار العلوم العربية، ٢٠٠٥.

محمود شمال. *مرجعيات الجماعة(المرجعيات واثرها في تقرير توجهات الافراد)*. بيروت: مؤسسة الانتشار العربي، ٢٠١٠.

نبيل عبد الهادي. *تشكيل السلوك الاجتماعي*. دار اليازوري، ٢٠١١.

نور الدين البصير. "تجاذبات اللغة والهوية بين الاصالة والاغتراب." *جسور المعرفة*، ٢٠١٥.